جحود النعم وأثره في هلاك الفرد والجماعة مثالان له في القرآن الكريم
(قارون والقرية الآمنة)

دكتور / حيدر محمد سليمان
كلية أصول الدين
جامعة أم درمان الإسلامية

مقدمة :

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين النبي الأمي الأمين وعلى آله وصحابته الطيبين الطاهرين والتابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد :

فمن نعم الله على عباده أن جعل أقواتهم وأرزاقهم مقدرة معلومة حيث يقول جل من قائل : (وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ × فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (الذاريات ٢٢: ٢٣) .

ففي هذه الآية الكريمة ؛ يقطع الله سبحانه و تعالى و يقرر للمسلمين أن مسألة اكتساب الأرزاق ؛ مسألة تم حسمها و إن طلبها هو إتباع للأسباب و حسب . و لم يتبق على المسلم إلا أن يترفق في طلبه و مجاهداته في كسب الأرزاق و السعي في الأرض ، فالله سبحانه و تعالى يقول : (وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ) (الذاريات : ٥٦) ، فالمطلوب هو العبادة التي من أجلها خلق الله تعالى : الجن والإنس . أما كسب الأرزاق والسعي في طلبها فقد ضمن الله تعالى حصة كل فرد في هذه الحياة ، و لأجل هذا قد نوع الله سبحانه وتعالى نعمه و عددها فجعلها على قدر خلقه و أمزجتهم و أمرهم سبحانه وتعالى بشكرانه كما قال جل من قائل : (وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ) (إبراهيم : ٧) .

وليست نعم الله تعالى منحصرة في باب الأرزاق والمعاش وكسب الأقوات ، فنعم الله تعالى لا يمكن حصرها ولا عدها . وكل نعمة أنعم الله بها على الإنسان فإنها تستوجب شكر الله تعالى عليها ، والشكر يكون بالقلب واللسان وسائر الجوارح [١] ، فشكر القلب هو تصور النعمة والعلم بالمنعم وهو الله جل علا ، وشكر اللسان هو الثناء عليه بالحمد والتسبيح والتبجيل وسائر الذكر ، وشكر سائر الجوارح هو استعمالها في طاعته تعالى وتجنب الاستعانة بها على معصيته [٢] ، ويقتضي ذلك امتثال المأمورات واجتناب المنهيات ، ومتى لم يؤد الإنسان شكر نعمة أنعم الله بها عليه فإنه يكون كافراً بتلك النعمة ، وأدنى مراتب الأداء هو الشكر بالقلب ، وقد

يكون الإنسان شاكراً لنعمة كافراً بأخرى ، ولا يتصور انعدام شكر النعم بالكلية إلا مع الكفر المطلق المضاد للإيمان . وكفران النعم أو كفرها : هو سترها بترك أداء شكرها [٣] ، وأكثر ما يستعمل لفظ الكفران في جحود النعم ، أما لفظ الكفر فيكثر استعماله في الشرك الكفر المضاد للإيمان [٤] .

وهذا الكفر المطلق وهو المتعارف عليه في جحود الوحدانية ، أو النبوة ، أو الشريعة ، أو ثلاثتها [٥] هو أخص من الكفر بالنعمة ، فكل كافر كفراً مطلقاً هو كافر بالنعمة وليس العكس ، فالكفر بالله في حد ذاته كفر بالنعم ، إذ ما من مخلوق إلا وهو يتقلب في نعم الله أقر بذلك أم لا ؟ فإن كفر بالله كان ذلك كفراناً بجميع النعم التي أنعم الله بها عليه ، والكافر في الغالب يجحد نعم الله فلا يقر أنها منه ، وينسبه أحياناً إلى أصنام وأوثان لا تضر ولا تنفع ، فيصرف لها ما يجب صرفه لله جل وعلا من العبادة ، وهذا أسوأ أنواع الكفران ، وهو حال الأمم الذين أهلكهم الله .

وقد وردت آيات في القرآن الكريم بينت ما جلب الكفران على أهله من الهلاك والدمار ، قال تعالى : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فَإِذَا هُم مُبلِسُونَ) (الأنعام:٤٤) فبعد فتح أبواب الخيرات عليهم لم يزيدوا على أن فرحوا بها فرح أشر وبطر وعجب ، من غير انتداب لشكر أو عرفان للمنعم ، فصارت تلك النعم نقماً استدرجوا بها حتى فاجأهم العذاب المستأصل [٦] .

وقال تعالى : (وَكَم أَهلَكنَا مِن قَريَةٍ بَطِرَت مَعِيشَتَهَا فَتِلكَ مَسَاكِنُهُم لَم تُسكَن مِن بَعدِهِم إِلَّا قَلِيلاً وَكُنَّا نَحنُ الوَارِثِينَ) (القصص:٥٨) ، قال أبو الليث السمرقندي [٧] في تفسير الآية : (كفرت برزق ربها ، ذكر القرية وأراد أهل القرية ، يعني أنهم كانوا يتقلبون في رزق الله تعالى فلم يشكروه في نعمته ، ويقال : (بَطِرَت مَعِيشَتَهَا) يعني : طغوا في نعمة الله فأهلكهم الله تعالى بالعذاب في الدنيا ، ويقال : عاشوا في البطر وكفران النعم [٨] .

وهاتان الآيتان وردتا في سياق الحديث عن عامة الأمم الهالكة ، وهناك آيات أخر وردت عن أمم معينة ، كقوله تعالى عن أهل القرية الآمنة : (فَكَفَرَت بِأَنعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الجُوعِ وَالخَوفِ بِمَا كَانُوا يَصنَعُونَ × وَلَقَد جَاءَهُم رَسُولٌ مِنهُم فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ العَذَابُ وَهُم ظَالِمُونَ) (النحل:١١٢،١١٣) ، وكالآيات الواردة في قصة قارون وكفره بنعم الله ، ثم هلاكه ، وسيأتي الحديث عنها ، وعن قصة أهل القرية الآمنة مفصلاً في الفصل الثالث إن شاء الله .

وفي معنى هذه الآيات ما يرد ذكره في المبحث الثاني من الآيات الكثيرة التي تتحدث عن نعم الله جل وعلا وعلى سائر الأمم الهالكة ، فهم لم يقابلوا تلك النعم بالشكر والعرفان ، بل كفروا بها وجحدوها بأقوالهم وأفعالهم ، وكان شركهم وتكذيبهم من أعظم الكفران ، إذ جعلوا لأصنامهم وأوثانهم حظا من الإنعام ، فصرفوا لها العبادة التي لا تكون إلا لله المنعم بجميع النعم ، ثم كذبوا الرسل الذين

كان إرسالهم من أعظم النعم عليهم لو أنهم استجابوا لدعوتهم ، لكنهم لم يقروا بكون ذلك نعمة فضلاً عن القيام بحقها من الشكر ، فصارت نقمة عليهم بسبب تكذيبهم وسائر منكراتهم التي انتهت بهم إلى الهلاك .

أسباب اختيار الموضوع :

١ . نكران النعم و جحودها و عدم شكرانها أصبحت من العادات المتأصلة والمتداولة لدى بعض من أفراد الأمة ، فيجب التنبيهُ على خطورتها .

٢ . أسباب الهلاك التي أصابت الأمم السابقة ذكرها الله سبحانه وتعالى في كتابة لنتعرف عليها و نتجنبها ، مستفيدين من تلك العبر و العظات .

٣ . البحث من الدراسات القرآنية المتعلقة بكتاب الله تعالى ، وهو أشرف الكتب و بشرف الموضوع يشرف الباحث .

٤ . أن الابتلاءات و المصائب التي تكتنف الأمة من جميع جوانبها مردها إلى البعد عن الله و هجران العمل بشريعة ، وجحود نعمه .

٥ . البحث يذكر بألاء الله ونعمه التي استوجب الله سبحانه وتعالى شكرانها حتى نجعل هذا منهجا و سلوكا متبعا في حياتنا .

٦ . إن المصائب التي تصيب الأمم والمجتمعات كالمصائب التي تصيب الأفراد.

٧ . البحث يشير إلى أنماط من البشر موجودة بيننا جاحدة لنعم الله سبحانه وتعالى ، فسيحيق بها ما حاق بقارون وإن كان ليس على سبيل الهلاك التام ، و كم من غني نراه قد أبتلي في ماله أو أبناءه أو صحته .

أهميه الموضوع :

يتسم هذا الزمان بكثرة الفتن و الكوارث التي تزهق الأرواح و تدمر البلاد ، و هذه الأمور إما عقوبات يعاقب الله بها العصاة ، أو ابتلاء يبتلي الله بها عباده ، ليميز الصبور من الجزوع ، و الواجب عند حدوث فتنة أو حلول كارثة ، ثم النجاة منها ، أو كان بعيد الدار فسلم من هذه الكارثة أو سمع بها ، فعليه أن يتعظ ويعتبر ! و هذا الاعتبار لا يتم إلا بتلمس الأسباب التي أدت إلى حلول العقاب ، فالله سبحانه و تعالى لا يعاقب إلا بذنب ، و العقاب لا يرفع إلا بتوبة .

إذا علمنا هذا تبين لنا الخلل و الخطأ فيما نراه أو نسمعه في هذا العصر عند حلول الكوارث ، فعند وقوع زلزال مثلا ، نجد أن الاهتمام كله ينصب على معرفة مركز الزلزال و قوته حسب مقياس (ريختر) ، و الدمار الذي تسبب عنه ، وعن الوسائل التي يمكن اتخاذها لبناء مساكن مقاومة للزلازل و نحو ذلك ، وهكذا في كوارث العواصف و الفيضانات و البراكين و الحروب .

ففي كل هذه لا نسمع حديثا لا في و سائل الإعلام و لا على ألسنة القادة عن التوبة إلى الله ، و الإقلاع عن المعاصي المنتشرة في المجتمع ، و التي تكون السبب الحقيقي لحلول الكارثة .

و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر دعامتان أساسيتان لحماية المجتمعات من العقوبات العاجلة ، فما دام الناس يتآمرون بالمعروف، و يتناهون عن المنكر فإنهم يكونون في مأمن من نزول العذاب ، لأن المعاصي و إن و جدت فإنها تكون خفية ، أو في نطاق ضيق ؛ أما إذا ترك الحبل على الغارب ، و جاهر أهل المعصية بمعصيتهم ، و شاعت في الناس الحرية الفوضوية ، و سكت الخاصة و العامة ، فلم يأمرون بمعروف أو لم ينهون عن منكر ، فلينتظروا عندئذ عذابا من الله ، لا يختص بالعصاة فحسب بل يعم المجتمع كله ، و شواهد ذلك في النصوص و التاريخ كثيرة ، و العاقل من اتعظ بغيره .

و آخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، و صلى الله على نبينا محمد و على آله و صحبه و سلم تسليما كثيرا.

منهج البحث :

البحث دراسة موضوعية اتبعت فيها أسلوب المنهج الموضوعي في الدراسات القرآنية ؛ فقد جمعت الآيات المتعلقة بالموضوع ، و الأحاديث النبوية ، و لم أقف كثيرا أمام القصص التاريخي الذي يعتبر في غالبه من قصص أهل الكتاب .

المبحث الأول :

نعم الله على الأمم الهالكة وكفرانهم بها

نعم الله سبحانه وتعالى على خلقه لا تعد ولا تحصى ، فما من مخلوق في هذا الكون إلا ويتقلب في نعمه جل وعلا ، لا يستغني عنها طرفة عين ، يستوي في ذلك الإنسان وغير الإنسان ، والمؤمن وغير المؤمن ، والشاكر للنعم والكافر بها ، فلا سبيل لأحد إلى إحصاء نعم الله على نفسه أو غيره ، فضلاً عن أمم قد فتح الله عليهم أبواب النعم في الدنيا ، والله جل وعلا يقول : (وَإِن تَعُدُّوا نِعمَتَ اللَّهِ لا تُحصُوهَا إِنَّ الأنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (ابراهيم:٣٤) .

وإذاً فالحديث في هذا المبحث ليس عن إحصاء نعم الله على الأمم الهالكة ، فذلك أمر لا يدرك ؛ وإنما القصد هنا هو تتبع الآيات التي تحدثت عن أبرز نعم الله عليهم عموماً أو على بعضهم خصوصاً ، والتعقيب بما قابلوا به تلك النعم من الجحود والكفران .

وهذه النعم تذكر تارة في سياق التحذير من الاغترار بالنعم والظن بأنها تحول دون عذاب الله جل وعلا ، فالله يخبر عن أمم أوتوا من القوة والملك وسائر النعم ما لم يؤتها كفار هذه الأمة ، لكن تلك النعم لم تحل بينهم وبين الهلاك .

وتارة تذكر النعم على لسان الرسل عليهم السلام في سياق تذكير قومهم بما أسبغ الله عليهم من النعم الظاهرة و الباطنة ، وإرشادهم إلى القيام بحقها من الشكر بعبادة الله وحده أوامره واجتناب نواهيه .

وأحياناً يكون هذا التذكير مقترناً بالإنكار عليهم وتوبيخهم بسبب ركونهم إلى تلك النعم ، وإسرافهم فيها . وظنهم أنها دليل حسن مذهبهم ، أو أنها حائلة دون العذاب .

وإنعام الله على الأمم الكافرة يجري وفق سنة إلهية تتكرر في كل أمة بعث الله إليها رسولا فكذبته ؛ وقد فصل القرآن الكريم المراحل التي تمر بها تلك الأمم بين النعمة والشدة ، وذلك في موضعين :

أولهما : قوله تعالى : (وَلَقَدْ أَرسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذنَاهُم بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ × فَلَولا إِذْ جَاءَهُم بَأسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَت قُلُوبُهُم وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ × فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَابَ كُلِّ شَيءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فَإِذَا هُم مُبلِسُونَ × فَقُطِعَ دَابِرُ القَومِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالحَمدُ لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ) (الأنعام:٤٢-٤٥) .

الموضع الثاني : قوله تعالى : (وَمَا أَرسَلنَا فِي قَريَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذنَا أَهلَهَا بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ × ثُمَّ بَدَّلنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَد مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذنَاهُم بَغتَةً وَهُم لا يَشعُرُونَ) (الأعراف:٩٤-٩٥) .

وإذا نظرنا في الآيات نجد أن المراحل التي تمر بها الأمم الكافرة بين النعمة والشدة قبل حلول العذاب عليها ثلاث مراحل ، وهي كالآتي :

المرحلة الأولى :

وهي الفترة السابقة لبعثة الرسل والتالية لها قبل بدء التكذيب ، وفي هذه المرحلة تكون الأمة على ما هي عليه من الكثرة والقوة وسعة الأرزاق وغيرها ، وتكون مع هذه النعم العظيمة منغمسة في الكفر والشرك ، فيرسل الله إليها رسولا لدعوتهم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام والأوثان ، والقيام بحق النعم من الشكر والعرفان ؛ ويدل على هذه المرحلة ما يأتي ذكره من أخذهم بالبأساء والضراء بعد إرسال الرسل ، ومقتضى ذلك الأخذ أنهم كانوا قبله في الرخاء والسعة .

المرحلة الثانية :

وتكون عقب تكذيب الأمة رسولها ، فيأخذهم الله بالشدائد والمحن ، لعلهم يثوبون إلى رشدهم ؛ ويدل على هذه المرحلة قوله تعالى : (وَلَقَد أَرسَلنَا إِلَى أُمَمٍ مِن قَبلِكَ فَأَخَذنَاهُم بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ) ، وقوله في موضع الأعراف : (وَمَا أَرسَلنَا فِي قَريَةٍ مِن نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذنَا أَهلَهَا بِالبَأسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُم يَضَّرَّعُونَ) ، وسبب أخذهم بالبأساء والضراء هو تكذيبهم الرسل ، لا مجرد إرسال الرسل إليهم ، ففي الكلام حذف يدل عليه الظاهرة ، تقديره : فكذبوهم فأخذناهم [٩] .

والبأساء : هي المصائب في الأموال وما ينتج عنها من الفقر و الضيق في العيش ونحوها ؛ أما الضراء : فهي المصائب في الأبدان كالأمراض والأسقام والآلام ونحوها [١٠] ، وقيل بالعكس ، وقيل : يجوز وضع كل واحد منهما بدل الآخر [١١] .

وإنما أخذهم الله بالبأساء رجاء أن يتذللوا ويستكينوا ، فيعودوا عن طريق التمرد والعناد ، لأن أحوال الشدة ترقق القلوب ، وتثير في النفوس كوامن الخضوع والتوبة

؛ لكنهم لم يفعلوا ذلك ، بل قست قلوبهم ، واعجبوا بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم ، قال تعالى : (فَلَولا إذ جَاءَهُم بَأسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِن قَسَت قُلُوبُهُمَ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيطَانُ مَا كَانُوا يَعمَلُونَ) (الأنعام:٤٣) .

المرحلة الثالثة :

وفيها يفتح الله عليهم أبواب النعم بعد إصرارهم على أعمالهم على الرغم من أخذهم بالبأساء والضراء ، ويدل على هذه المرحلة قوله تعالى : (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَابَ كُلِّ شَيءٍ) ، وقوله في الأعراف: (ثُمَّ بَدَّلنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الحَسَنَةَ) ، والمراد بنسيانهم ما ذكروا به هو تركهم الاتعاظ والاعتبار بما ذكرتهم به الرسل من أوامر الله و نواهيه [١٢] .

والتعبير عن الترك بالنسيان في إشارة إلى أن تركهم كان من وجوه الترك الذي يكون معه نسيان المتروك ، وزواله عن الذهن بالكلية [١٣] .

وهذا الترك ناتج عما تقدم ذكره من قساوة قلوبهم ، وإعجابهم ما زينه لهم الشيطان من أعمالهم .

وقوله : (فَتَحنَا عَلَيهِم أَبوَابَ كُلِّ شَيءٍ) المراد به أبواب كل شئ كان قد سد عليهم بالبأساء والضراء من النعم الدنيوية ، فهو عموم معناه خصوص [١٤] .

وفتح أبواب النعم على الأمم في هذه المرحلة مع إصرارهم على الكفر والتكذيب إنما كان استدراجا لهم إلى الهلاك ؛ فهم لم يزدادوا بتلك النعم إلا أشراً وبطرا وكفرانا بها ، فانقلبت النعم نقما جلبت عليه العذاب العاجل ، قال تعالى :

(حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذنَاهُم بَغتَةً فَإِذَا هُم مُبلِسُونَ) ، وقال في الأعراف :

(حَتَّى عَفَوا وَقَالُوا قَد مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذنَاهُم بَغتَةً وَهُم لا يَشعُرُونَ) ومعنى [عَفَوا] أي كثروا وكثر أموالهم وأولادهم [١٥] فصاروا بذلك في كثرة وقوة ورغد عيش ، فلما رأوا أنفسهم بتلك الحالة اغتروا وبطروا وقال مقالتهم الدالة على الجحود والغفلة : (قَد مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ) جعلوا ما أصابهم من الشدائد ثم النعم من تقلبات الدهر والأيام كما كان حال أسلافهم ؛ فقد أتتهم النعم بعد المصائب ولم يكن ذلك نذير شر ، ولا بادرة عذاب إذا لم يأتهم هلاك ولا عذاب، بل ماتوا بآجالهم ، فكذلك سيكون الأمر بالنسبة إليهم : وقد غفل المغترون عما قام عليهم من الحجة ببعثة الرسل إليهم ، بخلاف آبائهم ، فكان أن اطمأنوا بهذا القياس الفاسد حتى فاجأهم العذاب .

أما بالنسبة للآيات التي تحدثت عن نعم الله على الأمم التي تم هلاكها فهي على قسمين :

القسم الأول : الآيات التي تحدثت عن النعم التي خص الله بها الأمم الهالكة : .

وأكثر ما ورد من ذلك جاء في سياق التحذير عن الاغترار بالنعم ، وذلك بتذكير هذه الأمة بمصير الأمم الهالكة التي كانت أكثر وأقوى وأحسن عمرانا وآثارا ، وأشد تمكينا من كفار هذه الأمة ، ولما جاء أمر الله بإهلاكهم

لم يغن ذلك عنهم شيئا ولم يستطيعوا له ردا.

والآيات الواردة من هذا القسم كثيرة ، منها قوله تعالى : (أَلَم يَرَوا كَم أَهلَكنَا مِن قَبلِهِم مِن قَرنٍ مَكَّنَّاهُم فِي الأَرضِ مَا لَم نُمَكِّن لَكُم وَأَرسَلنَا السَّمَاءَ عَلَيهِم مِدرَاراً وَجَعَلنَا الأَنهَارَ تَجرِي مِن تَحتِهِم فَأَهلَكنَاهُم بِذُنُوبِهِم)[16] ، وقوله سبحانه وتعالى :

(أَوَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم كَانُوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرضَ وَعَمَرُوهَا أَكثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتهُم رُسُلُهُم بِالبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظلِمَهُم وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُم يَظلِمُونَ) (الروم:٩) .

وهنالك آيات أخرى تحمل ذات هذه المعاني : كما في قوله تعالى : (كَالَّذِينَ مِن قَبلِكُم كَانُوا أَشَدَّ مِنكُم قُوَّةً وَأَكثَرَ أَموَالاً وَأَولاداً فَاستَمتَعُوا بِخَلاقِهِم فَاستَمتَعتُم بِخَلاقِكُم كَمَا استَمتَعَ الَّذِينَ مِن قَبلِكُم بِخَلاقِهِم وَخُضتُم كَالَّذِي خَاضُوا أُولَئِكَ حَبِطَت أَعمَالُهُم فِي الدُّنيَا وَالآخِرَةِ وَأُولَئِكَ هُمُ الخَاسِرُونَ) (التوبة:٦٩) ، وقوله تعالى : (وَكَم أَهلَكنَا قَبلَهُم مِن قَرنٍ هُم أَحسَنُ أَثَاثاً وَرِئياً) (مريم:٧٤) ، وقوله تعالى : (أَوَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَكَانُوا أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعجِزَهُ مِن شَيءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) (فاطر:٤٤) ، وقوله تعالى : (أَوَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِن قَبلِهِم كَانُوا هُم أَشَدَّ مِنهُم قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرضِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِم وَمَا كَانَ لَهُم مِنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ) (غافر:٢١) ، وقوله تعالى : (أَفَلَم يَسِيرُوا فِي الأَرضِ فَيَنظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم كَانُوا أَكثَرَ مِنهُم وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَاراً فِي الأَرضِ فَمَا أَغنَى عَنهُم مَا كَانُوا يَكسِبُونَ) (غافر:٨٢) ، وقوله تعالى : (وَكَأَيِّن مِن قَريَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِن قَريَتِكَ الَّتِي أَخرَجَتكَ أَهلَكنَاهُم فَلا نَاصِرَ لَهُم) (محمد:١٣) .

وهناك آية تبين البون الشاسع بين ما كانت عليه الأمم الهالكة من القوة والشدة والتمكين وبين ما عليه مكذبوا هذه الأمة ، وفي ذلك دلالة على عظم نعم الله على تلك الأمم ، والآية هي قوله تعالى : (وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم وَمَا بَلَغُوا مِعشَارَ مَا آتَينَاهُم فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيفَ كَانَ نَكِيرِ) (سبأ:٤٥) ، قال الطبري في تفسير الآية : (ولم يبلغ قومك يا محمد عشر ما أعطينا الذين من قبلهم من القوة والأيدي[17] والبطش وغير ذلك من النعم)[18] .

وإذ كان هؤلاء قد أهلكوا بذنوبهم مع ما أوتوا من القوة والشدة ، فالأجدر بمن لم يؤت عشر ذلك ألا يغتر بقوته ولا بشدته حيال عذاب الله وبأسه .

المبحث الثاني :

النعم التي ذكرت مقرونة بأمم خاصة

وأكثر ما ورد من ذلك جاء في سياق تذكير الأنبياء قومهم بنعم الله عليهم ، ودعوتهم إلى شكر تلك النعم ، وعدم الركون إليها ، أو الاغترار بها ؛ والأنبياء عادة يذكرون أممهم بأبرز نعم الله عليهم ، وقد خص الله بعض الأمم ببعض النعم ، فكل نبي يذكر قومه بما خص الله به قومه دون إغفال النعم العامة

الظاهرة ، وسيتبين ذلك . بإذن الله . خلال الحديث عن نعم الله على كل أمة على حدة في النقاط التالية :

١. قوم نوح [عليه السلام] :

يقول الله جل وعلا حكاية عن نوح [عليه السلام] وهو يذكر قومه بنعم الله على الخلق عامة وعليهم خاصة : (مَا لَكُم لا تَرجُونَ للَّه وَقَاراً × وَقَد خَلَقَكُم أطوَاراً × ألَم تَروا كَيفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقاً × وَجَعَلَ القَمَرَ فِيهِنَّ نُوراً وَجَعَلَ الشَّمسَ سِرَاجاً × وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِنَ الأَرضِ نَبَاتاً × ثُمَّ يُعِيدُكُم فِيهَا وَيُخرِجُكُم إخرَاجاً × وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الأَرضَ بِسَاطاً × لِتَسلُكُوا مِنهَا سُبُلاً فِجَاجاً)[١٩] ..

وكان نوح قد أرشد قومه قبل هذا إلى ما يفتح عليهم أبواب النعم ، ويجلب إليهم الخيرات التي هم في أمس الحاجة إليها ، قال تعالى حكاية عنه (فَقُلتُ استَغفِرُوا رَبَّكُم إنَّهُ كَانَ غَفَّاراً × يُرسِل السَّمَاءَ عَلَيكُم مِدرَاراً × وَيُمدِدكُم بِأَموَالٍ وَبَنِينَ وَيَجعَل لَكُم جَنَّاتٍ وَيَجعَل لَكُم أنهَاراً ×)[٢٠] ، لكن القوم لشقاوتهم وعنادهم كفروا بنعم الله كلها ، فلا هم شكروه عل ما هم فيه من النعم ، ولا سلكوا طريق الاستزادة منها وهو الاستغفار ، بل لجأوا إلى أوثانهم متواصين بالتمسك بها ؛ لكنها لم تغن عنهم شيئا حين أتاهم من الله ما أتاهم .

٢. عاد :

وردت آياته في القرآن الكريم فيها ذكر بعض النعم التي أنعم الله بها على عاد ، وكانوا قوما آتاهم الله قوة في الأجسام ، وعلما بالعمران والبناء ، و بسطا في المعاش وسائر ضروب الحياة ، وكان نبيهم هود [عليه السلام] يذكرهم بتلك النعم ، ويبصرهم بالمنعم ، لعل قلوبهم تلين ، فينقادون لخالقهم ويشكرونه على نعمه ويخلصون العبادة له وحده ، وفي ذلك يقول هود [عليه السلام] كما حكاه عنه القرآن : (أَوَعَجِبتُم أَن جَاءَكُم ذِكرٌ مِن رَبِّكُم عَلَى رَجُلٍ مِنكُم لِيُنذِرَكُم وَاذكُرُوا إذ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعدِ قَومِ نُوحٍ وَزَادَكُم فِي الخَلقِ بَسطَةً فَاذكُرُوا آلاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُم تُفلِحُونَ)[٢١] . وفي هذا المقام ذكرهم هود بنعمتين عظيمتين ، ثم حثهم على تذكر نعم الله عموماً ؛ والنعمة الأولى : هي جعلهم خلفاء في الأرض بعد هلاك قوم نوح ، وفي ذلك.والله أعلم. إشارة إلى انفرادهم بالسيادة والغلبة على سائر الأمم في عصرهم ، وذلك دليل على القوة والمنعة .

والنعمة الثانية : هي إعطاؤهم قوة في الأجسام في قوله : (وَزَادَكُم فِي الخَلقِ بَصطَةً) أي كمالاً في الأجسام طولاً وعرضاً[٢٢] .

وورد ذكر هذه النعمة في موضع آخر في قوله تعالى : (أَلَم تَرَ كَيفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ × إرَمَ ذَاتِ العِمَادِ) (الفجر: ٦ - ٧) ، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآية : (أي القبيلة التي لم يخلق مثلها في بلادهم لقوتهم وشدتهم وعظم تركيبهم)[٢٣] ، يقصد بذلك ما آتاهم من قوة وبسطة في الجسم .

ومن النعم التي ذكر هود عليه السلام قومه بها ما ورد في قوله تعالى حكاية عنه : (وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُم بِمَا تَعلَمُونَ × أَمَدَّكُم

بأَنعَامٍ وَبَنِينَ × وَجَنَّاتٍ وَعُيُونٍ) (الشعراء:١٣٢-١٣٤) ، كما ندبهم هود إلى الاستغفار والتوبة إلى الله ليزيدهم الله من نعمه عليهم ، قال تعالى حكاية عنه : (وَيَا قَومِ استَغفِرُوا رَبَّكُم ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ يُرسِلِ السَّمَاءَ عَلَيكُم مدرَارًا وَيَزِدكُم قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُم وَلا تَتَوَلَّوا مُجرِمِينَ) (هود:٥٢) .

وبدلاً من الاستعانة بهذه النعم على طاعة الله جل وعلا ، استعانت بها عاد على التجبر ، والاعتداء على الناس ، والإسراف في العمران ، والتفاخر بالقوة ، وقد أنكر عليهم هود هذا الانحراف عن الجادة ، وخوفهم من عاقبته ، قال تعالى حكاية عنه : (أَتَبنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ آيَةً تَعبَثُونَ × وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُم تَخلُدُونَ × وَإِذَا بَطَشتُم بَطَشتُم جَبَّارِينَ × فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ) (الشعراء: ١٢٨-١٣١) .

وبلغ اغترار عاد بقوتهم أن قالوا مقالتهم الشنيعة ، التي حكاها الله عنهم في قوله تعالى : (فَأَمَّا عَادٌ فَاستَكبَرُوا فِي الأَرضِ بِغَيرِ الحَقِّ وَقَالُوا مَن أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً) (فصلت:١٥) ، ولما جاء أمر الله بهلاكهم لم تغن عنهم قوتهم شيئا ، ولم تحل تلك النعم التي اغتروا بها دون عذاب الله ، قال تعالى : (فَمَا أَغنَى عَنهُم سَمعُهُم وَلا أَبصَارُهُم وَلا أَفئِدَتُهُم مِن شَيءٍ إِذ كَانُوا يَجحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَا كَانُوا بِهِ يَستَهزِئُونَ)(الاحقاف:٢٦) .

٣/ ثمود :

كانت ثمود على شاكلة عاد في الحال والمآل ، أغدق الله عليهم النعم ، فكانوا في رغد من العيش مع التمكين في الأرض ، وكان نبيهم صالح عليه السلام يذكرهم بتلك النعم في مستهل دعوته ، ويعرفهم بالمنعم جل وعلا ، ويرشدهم إلى طريق الشكر ، داعياً إياهم إلى عبادة الله وحده ، وترك عبادة الأصنام ، قال تعالى : (وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُم صَالِحاً قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِن إِلَهٍ غَيرُهُ هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ وَاستَعمَرَكُم فِيهَا فَاستَغفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ) ، فقوله : (هُوَ أَنشَأَكُم مِنَ الأَرضِ) فيه تذكير بنعمة الإيجاد ، وإشارة إلى أصل خلق أبيهم آدم عليه السلام ، خلقه من تراب ، ومنه تناسل البشر [٢٤] .

وقوله : (وَاستَعمَرَكُم فِيهَا) أي جعلكم عماراً لها تسكنون فيها مدة حكايتهم [٢٥] ، وفي هذا إشارة إلى ما أنعم الله عليه من التمكين في الأرض ، وتسخير موجوداتها لهم ؛ وقد ورد ذكر هذه النعمة مع نعم أخرى في قوله تعالى : (وَاذكُرُوا إِذ جَعَلَكُم خُلَفَاءَ مِن بَعدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُم فِي الأَرضِ تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتاً فَاذكُرُوا آلاءَ اللَّهِ وَلا تَعثَوا فِي الأَرضِ مُفسِدِينَ) (الأعراف:٧٤) ، وقوله تعالى :

(وَبَوَّأَكُم فِي الأَرضِ) أي مكنكم فيها [٢٦] .

وقد بين بعض جوانب هذا التمكين بقوله : (تَتَّخِذُونَ مِن سُهُولِهَا قُصُوراً وَتَنحِتُونَ الجِبَالَ بُيُوتا) في هذا السورة ، ولها نظائر في الحجر [٢٧] ، والشعراء [٢٨] ، الفجر [٢٩] .

وهؤلاء عندما اتخذوا من السهول قصوراً ، ونحتوا من الجبال بيوتاً ، لم يفعلوا ذلك على جهة التمتع الحلال بالنعم ، والاكتفاء

بقدر الحاجة من السكن ، بل فعلوا ذلك على جهة الإسراف والبطر ، مع الركون إلى ما هم فيه من النعم ، والاغترار بما بنته أيديهم ، من قصور منيفة ، وبيوت حصينة ، ظانين أنها تمنعهم من العذاب ، وكانت مبالغتهم في البناء ، وإسرافهم في الملذات كحال من يأمل الخلود في هذا الدار ، فأنكر صالح عليهم هذا المسلك ، وخوفهم من العذاب ، قال تعالى حكاية عنه : (أَتُتْرَكُونَ في مَا هَاهُنَا آمنينَ × في جَنَّات وَعُيُون × وَزُرُوع وَنَخْل طَلْعُهَا هَضيمٌ × وَتَنحتُونَ منَ الجبَال بُيُوتاً فَارهينَ × فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطيعُون) (الشعراء:١٤٦-١٥٠) ، وهذا الاستفهام الإنكاري لو كان يستدعي جواباً ، لكان جوابه كلاً ثم كلاً ؛ فما كانت هذه النعم ولا غيرها بدائمة ، ولا بحائلة دون عذاب الله حين يأتي ، بل لما قوبلت هذه النعم بالكفران تحولت نقماً حلبت الهلاك على أهلها ، فتخرموا [٣٠] من جناتهم وعيونهم وزروعهم وثمارهم وقصورهم ، كأن لم ينعموا بها يوماً من الأيام .

٤/ قوم لوط عليه السلام :

ذكر لوط قومه بنعمة هي من أعظم النعم على البشرية جمعاء ، وهي نعمة خلق الذكر والأنثى ، وجعل كل واحد منهما يميل للآخر ، تسكن الزوجة للزوج ويسكن الزوج إليها ، فيكون التزاوج مع ما يجلبه من المودة والرحمة ، ثم يكون التناسل والتكاثر ، ويترتب على ذلك كثير من المصالح والمنافع الدنيوية والأخروية ؛ وهذه النعمة كغيرها من النعم يجب أن تشكر ، وأن يسلك فيها ما شرعه الله جل وعلا ، وأن يوقف فيها عند حدوده ؛ لكن قوم لوط لشذوذ في طباعهم ، واعوجاج في غرائزهم تجاوزوا حدود هذه النعمة إلى ما حرم الله فابتدعوا فاحشة إتيان الذكور شهوة من دون النساء ، فأنكر لوط عليهم هذا الانحراف والشذوذ - مذكراً إياهم بالنعمة المشار إليها آنفاً - فقال كما حكاه الله عنه : (أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ منَ العَالَمينَ × وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُم رَبُّكُم من أَزْوَاجكُم بَل أَنتُم قَومٌ عَادُونَ) (الشعراء: ١٦٥-١٦٦) ، لكن حب الفاحشة كان قد تأصل فيهم فلم تنفعهم المواعظ ولا التذكير فهلكوا فيمن هلك .

٥/ قوم شعيب عليه السلام :

أنعم الله على قوم شعيب بنعم كثيرة ، من أبرزها نعمة الكثرة بعد القلة ، وهي نعمة عظيمة ؛ فالكثرة سبب من أسباب القوة والعزة والتمكين والأمن ، أما القلة فيكون معها - غالباً - الذل والخوف والاستضعاف من قبل الأعداء ؛ فلما كان قوم شعيب قليلي العدد ، أذلة مستضعفين ، ثم كثر الله عددهم فصاروا أقوياء ذوي منعة ورفعة حق عليهم أن يقوموا بحق هذه النعمة من الشكر ، وأن يعرفوا المنعم جل وعلا ويعبدوه وحده لا شريك له ، ويتركوا عبادة الأصنام التي لا تنفع ولا تضر ؛ فلما لم يفعلوا ذلك ذكرهم نبيهم به ، وخوفهم من السير في طريق من هلك من الأمم السالفة ، ممن كفروا بنعم الله ، وأفسدوا في الأرض ، قال تعالى حكاية عنه: (وَاذكُرُوا إذ كُنتُم قَليلاً فَكَثَّرَكُم وَانظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقبَةُ المُفسدينَ)(الأعراف: ٨٦) .

وفي موضع آخر ذكرهم شعيب بما هم فيه من خيرات الدنيا، من السعة في العيش، ورخص الأسعار، وكثرة الأموال ونحوها [31]، وفي هذه الأمور غنية لهم عن أكل أموال الناس بالباطل وبخسهم حقوقهم، فكان الواجب عليهم أن يشكروا الله على تلك النعم لا أن يسعوا في اقتطاع ما بأيدي الناس بغير حق، قال تعالى: (وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْباً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ وَلا تَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُمْ بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُحِيطٍ) (هود:٨٤)، ولشدة جشع القوم وطمعهم لم يقنعوا بما آتاهم الله من الخيرات، فلم يؤدوا شكرها، وأصروا على ما درجوا عليه من نقص المكيال والميزان وهضم حقوق الناس وسائر المنكرات، فكان أن عاقبهم الله تعالى بالهلاك المبير.

٦/ فرعون وقومه:

آتى الله فرعون وقومه كثيراً من نعم الدنيا وزينتها، فكان لهم الملك والسلطان، وكانوا في رغد من العيش، بسبب ما منحهم الله من الأموال، وأنشأ لهم من الجنات، وأجرى لهم من الأنهار؛ ومع هذا فقد كانوا من أكفر خلق الله بالنعم، إذ كانوا منكرين لوجود الرب جل وعلا، معتقدين ربوبية فرعون عليه لعنة الله، فكفروا بذلك بأعظم النعم، نعمة الخلق والإيجاد، وكفرهم بتوابع ذلك من الإرزاق والتمكين وغيرهما من باب أولى.

وقد حاججهم موسى عليه السلام، فأقام لهم البراهين على ربوبية الله الواحد الأحد، وذكرهم بنعمة الله الظاهرة العامة، كما في قوله تعالى: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلاً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى × كُلُوا وَارْعَوْا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآياتٍ لِأُولِي النُّهَى) (طه:٥٣.٥٤).

وقد بين القرآن الكريم نظرة فرعون وقومه إلى النعم، وتلك النظرة مبنية على ثلاث أمور:

الأول: الاعتقاد بأن النعم والخيرات إنما تأتيهم لاستحقاقهم لها، وكونهم أهلاً لحصولها، قال تعالى: (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَذِهِ)(الأعراف: ١٣١)، قال ابن الجوزي رحمه الله: قوله تعالى: (فَإِذَا جَاءَتْهُمُ الْحَسَنَةُ) وهي الغيث والخصب وسعت الرزق والسلامة: (قَالُوا لَنَا هَذِهِ) أي نحن مستحقوها على ما جرى لنا من العادة في سعة الرزق، ولم يعلموا أنه من الله فيشكروا عليه) [32].

الثاني: التفاخر والتباهي بالنعم، والاعتقاد بأنها دليل حسن مذهبهم، قال تعالى: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ × أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكَادُ يُبِينُ) (الزخرف: ٥١.٥٢).

الثالث: الاغترار بالنعم، والظن بأنها ما نعتهم من العذاب، وذلك مستنبط مما ورد في نصيحة الرجل الذي آمن منهم، قال تعالى حكاية عنه: (يَا قَوْمِ لَكُمُ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَنْصُرُنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا) (غافر: ٢٩)، قال ابن كثير في تفسير الآية: (أي

قد أنعم عليكم بهذا الملك والظهور في الأرض بالكلمة النافذة ، والجاه العريض ، فراعوا هذه النعمة بشكر الله تعالى وتصديق رسوله ، واحذروا نقمة الله إن كذبتم رسوله)[٣٣] ، وهم مع عدم قيامهم بحق هذه النعمة من الشكر ، كانوا يعتقدون أنهم في مأمن ومنعة من حلول العذاب لما يرون لأنفسهم من القوة والسلطان على أهل الأرض ، فحذرهم الرجل من التمادي في التكذيب والاغترار بالملك والسلطان .

ولما كان آل فرعون على هذا القدر من كفران النعم وجحودها والتفاخر بها والتباهي ، والاستعانة بها على الصد عن سبيل الله لا جرم دعا عليهم موسى عليه السلام ، فسأل ربه أن يطمس على أموالهم ويشدد على قلوبهم لعلهم يرعوون على غيبهم ، قال تعالى : (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَا إِنَّكَ آتَيتَ فِرعَونَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَموَالاً فِي الحَيَاةِ الدُّنيَا رَبَّنَا لِيُضِلُّوا عَن سَبِيلِكَ رَبَّنَا اطمِس عَلَى أَموَالِهِم وَاشدُد عَلَى قُلُوبِهِم فَلا يُؤمِنُوا حَتَّى يَرَوُا العَذَابَ الأَلِيمَ) (يونس:٨٨) .

ولما جاء أمر الله بإهلاك آل فرعون خرجوا من تلك النعم خروجاً لا عودة بعده أبداً ، فتركوا خلفهم الجنات والأنهار والزروع والأموال والملك والسلطان ، قال تعالى : (فَأَخرَجنَاهُم مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ × وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ × كَذَلِكَ وَأَورَثنَاهَا بَنِي إِسرائيلَ) (الشعراء:٥٧-٥٩) ، وقال تعالى : (كَم تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ × وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ × وَنَعمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ × كَذَلِكَ وَأَورَثنَاهَا قَوماً آخَرِينَ) (الدخان:٢٥-٢٨) ، فما أشد حسرتهم وما أعظم مصيبتهم خرجوا من النعم وانقلبوا إلى العذاب السرمدي ، قال تعالى : (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِآلِ فِرعَونَ سُوءُ العَذَابِ× النَّارُ يُعرَضُونَ عَلَيهَا غُدُوّاً وَعَشِيّاً وَيَومَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدخِلُوا آلَ فِرعَونَ أَشَدَّ العَذَابِ) (غافر:٤٥-٤٦) ، وهذا جزاء عادل لمن جحد الإله ، وكذب الرسل ، وكفر بالنعم ، اللهم أجرنا من تحول عافيتك وفجاءة نقمتك .

المبحث الثالث :

هلاك قارون

هناك قصتان من قصص الهالكين ، فيهما التركيز على جانب كفران النعم وآثاره ، وهما جديرتان بالدراسة بشيء من التفصيل ، ولما لهما من الأهمية في تذكير من بطروا النعمة واستكبروا على خلقه في هذا الزمان ، سواء كانوا أفرادا مثل قارون أو جماعة مثل أهل القرية التي كانت آمنة ، فآثرت تخصيص هذا المبحث للحديث عن كل قصة على حدة ؛ والقصتان هما قصة قارون ، وقصة أهل القرية الآمنة ، وذلك على النحو التالي :

١/ قارون :

فتح الله أبواب الرزق على قارون فأثرى ثراء فاحشاً ، حتى صار مضرب المثل في كثرة الأموال والكنوز ، وقد سجل القرآن الكريم قصة ثرائه ، وبغيه على قومه وطغيانه عليهم ، وكفره بنعم الله ثم هلاكه ، ليكون مثلاً يتعظ به أولو الألباب ، وزجراً لمن يسلك طرقه ممن أنعم الله عليهم بنعمة المال فبطروا وطغوا وجحدوا نعمة ربهم .

وقد ورد تفصيل قصة قارون في سورة القصص [٣٤] في سياق واحد يتكون من عدة موضوعات ، تصور حالة قارون والمراحل التي مر بها من بغيه حتى هلاكه ؛ وسأتحدث عن تلك الموضوعات في النقاط التالية :

أولاً : ثروة قارون :

بعبارة موجزة بين القرآن الكريم ضخامة الثروة التي كان يمتلكها قارون ، والتي سببها بغيه على قومه ، قال تعالى : (إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَومِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيهِم وَآتَينَاهُ مِنَ الكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصبَةِ أُولِي القُوَّةِ) (القصص:٧٦) وقوله : (وَآتَينَاهُ مِنَ الكُنُوزِ) الكنوز : جمع كنز ، وأصل الكنز : (جعل المال بعضه على بعض وحفظه) [٣٥] . وقد يطلق على المال المدفون والمدخر مطلقاً [٣٦] .

ومعنى الآية أن الله آتى قارون الأموال الطائلة المجموعة بعضها إلى بعض ، وقد وصفت هذه الكنوز بما يدل على كثرتها وعظمها ، وذلك في قوله تعالى : (مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالعُصبَةِ أُولِي القُوَّةِ) أي أن مفاتح كنوز قارون تثقل العصبة ، وهي الجماعة الكثيرة ذوو القوة [٣٧] ، وقد اختلف المفسرون في المراد بالمفاتح هنا على قولين :

الأول : أنها جمع مفتح بكسر الميم ، بمعنى المفتاح الذي يجمع على مفاتيح ، وهو الآلة التي يفتح بها الخزائن والأبواب [٣٨] .

وتوضيح هذا القول : أن كنوز قارون كانت في خزائن ، ولكل خزينة مفتاح ، ولكثرت خزائنه كثرت المفاتيح بحيث كان ينوء بحملها الجماعة الأقوياء من الناس .

وهذا القول لا يحيله العقل إذا صرفنا النظر عن المبالغات التي وردت في بعض الروايات الإسرائيلية [٣٩] ؛ إذ لا يلزم أن تكون تلك الخزائن غرفا مملوءة بالأموال ، بل قد تكون صناديق صغيرة ، وفي كل صندوق مقدار من المال ، له مفتاح يخصه [٤٠] ، كما لا يلزم من المفاتيح أن تكون بحجم الأصبع كما في الرواية الإسرائيلية ، بل قد تكون أكبر حجماً من ذلك وأثقل ؛ فطريقة حفظ الأموال تختلف باختلاف الأعصار والأمصار ؛ فإذا كان الأمر كذلك جاز عقلاً أن يكون لقارون خزائن كثيرة ، لها مفاتيح يثقل حملها الجماعة من الناس ، وهذه الجماعة تصدق على الثلاث فأكثر ، ولا يلزم أن يكونوا ستين أو سبعين كما في بعض الأقوال الواردة في تحديد عدد العصبة [٤١] .

القول الثاني :

أن المفاتح هي الخزائن التي يحفظ فيها الأموال ، والقياس أن تكون جمع مفتح [٤٢] .

وهذا القول واضح لا إشكال في إمكانية وقوعه ، وكلا القولين صحيحان لغة ، والآية تحتملهما ، وأياً كان المراد به كان دليلاً على كثرة الأموال التي آتاه الله قارون ، والله أعلم [٤٣] .

ثانياً : نصح قومه له :

ذكر بغي قارون في صدر القصة يدل على أنه لم يسلك المسلك السليم في إنفاق الثروة الطائلة التي منحها الله إياها ، فاستدعى الأمر قيام ذوي الرأي من قومه بإسداء النصيحة إليه وإرشاده إلى أسس التصرف الصحيح في النعم ، وفي ذلك يقول الله تعالى : (إِذ

قَالَ لَهُ قَومُهُ لا تَفرَح إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ × وَابتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا وَأَحسِن كَمَا أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ وَلا تَبغِ الفَسَادَ فِي الأَرضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ) (القصص:٧٦-٧٧) .

فنصحوه نصائح نصائح قيمة ، تتضمن القواعد العامة لاستخدام النعم ، ومنها نعمة المال ؛ ولو نظرنا إلى الآيتين لوجدنا أن كل جملة فيها تتضمن قاعدة من تلك القواعد ، ويتضح ذلك من خلال تحليل الآيتين إلى جمل على النحو التالي :

الجملة الأولى ، والثانية :

قوله : (لا تَفرَح إنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ) الأولى :(لا تَفرَح) فيها النهي عن الفرح ، والمراد به الفرح الذي يقود إلى الأشر والبطر والبغي والثانية : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الفَرِحِينَ)[٤٤] تعليل لذلك النهي بكون المنهي عنه مانعاً من محبة الله فهو جالب لسخطه وغضبه ، والأجدر بكل عاقل أن يجتنب ما يجلب عليه سخط الرب وغضبه .

الجملة الثالثة :

قوله : (وَابتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ) فيها بيان المقصود الحقيقي من المال ، وهو جعله وسيلة لنيل السعادة الأبدية في الآخرة ، ولا ينال ذلك إلا بصرفه في الوجوه التي أذن الله بصرفها فيها .

الجملة الرابعة :

قوله : (وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنيَا) فيها الإرشاد إلى التمتع بالحلال بالنعم ، من مأكل أو مشرب أو ملبس أو منكح ، دون تقتير وإسراف[٤٥] فهذه الجملة دافعة لما قد يتوهم من دلالة الجملة السابقة على التقتير على النفس ، وتحريم التمتع بالنعم في حدود الاعتدال .

وثمت أقوال أخرى في معنى هذه الجملة وردت عن بعض الصحابة والتابعين ، ويجمعها ما روى عن ابن عباس ، قال : (لا تترك أن تعمل لله في الدنيا)[٤٦] ، وهو لا يناقض المعنى الأول المروي عن بعض التابعين أيضاً ؛ وهذه الجملة على حسب تلك الأقوال مؤكدة لمعنى الجملة السابقة .

الجملة الخامسة :

قوله : (وَأَحسِن كَمَا أَحسَنَ اللَّهُ إِلَيكَ) فيها الأمر بالإحسان إلى الناس بالصدقة والصلة ؛ فكما أحسن الله إليك بهذا المال فأحسن إلى عباده ، وأشركهم في النعمة[٤٧] .

الجملة السادسة ، والسابعة :

قوله : (وَلا تَبغِ الفَسَادَ فِي الأَرضِ إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ) ، الجملة الأولى منهما (وَلا تَبغِ الفَسَادَ فِي الأَرضِ) فيها النهي عن السعي في الأرض بالفساد ، بارتكاب المعاصي ، وظلم الناس والبغي عليهم[٤٨] ، والثانية : (إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ المُفسِدِينَ) تعليل للنهي عن الإفساد في الأرض ، لكون ذلك مانعاً من محبة الله تعالى[٤٩] ، وهذه الجملة شبيهة في الأسلوب بالجملة الثانية ، فكلتاهما تعليل لما قبلها ، والله أعلم .

ثالثاً :

رد قارون على نصح الناصحين :

اشتملت النصائح التي أسداها الناصحون لقارون على ما لو قبله لفاز بسعادة الدارين ، لكن عدو الله أخذته العزة بالإثم ، فطغى وشمخ بأنفه ، ورد النصائح رداً قبيحاً ، بقوله وفعله :

أما القول : فكما في قول الله تعالى : (قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندِي) كلمة كفرية شنيعة ، تنم عن الجحود والطغيان ، اغتر الخبيث بنفسه وماله ، فلم يقر بنعمة الله عليه ، ولم يعترف بفضله ، ولم يعلم أن هذا المال الذي أوتيه ابتلاءً وامتحان .

وقد اختلف المفسرون في المقصود بمقولة قارون هذه على أقوال مرجعها إلى قولين :

القول الأول : أنه ادعى وجود علم عنده استوجب به أن يكون صاحب هذا المال وهذه النعمة [٥٠] ، ثم اختلفوا في تحديد العلم الذي ادعاه ، فقيل : هو العلم بالتوراة ، وقيل : هو علم الكيمياء [٥١] ، وقيل : هو العلم بوجوه الكسب وتثمير المال [٥٢] .

وهذا القول الأخير أقرب من سابقيها ، فالأول لا يمكن الوقوف على صحته إلا بالنقل الصحيح ، ولا وجود لذلك ، والثاني باطل من الأصل .

القول الثاني : أنه ادعى أن المال الذي أوتيه إنما كان بسبب علم الله فيه أنه أهل له ، وأنه يستحقه لفضله ، ومحبة الله له ، فلا حاجة له إلى نصح ناصح [٥٣] وكلمة (عِندِي) على هذا القول بمعنى في رأيي وظني ، كأنه قال : (إنما أوتيته على علم) ثم قال : (عندي) أي في معتقدي وعلى ما أراه [٥٤] ؛ وهو بهذا ينكر أن يصيبه مكروه في أمواله لمسلكه .

ولا مانع أن يكون قارون معتقداً لمدلول هذين القولين ، وقاصداً إياهما بقوله : (إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلمٍ عِندِي) والقول الثاني أظهر ، ويقويه ما ورد في الرد على مقولته في قول الله تعالى : (أَوَلَم يَعلَم أَنَّ اللَّهَ قَد أَهلَكَ مِن قَبلِهِ مِنَ القُرُونِ مَن هُوَ أَشَدُّ مِنهُ قُوَّةً وَأَكثَرُ جَمعاً وَلا يُسأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ المُجرِمُونَ) [٥٥] ، فليس الأمر كما اعتقد قارون وادعى (فلو كان إعطاء المال والقوة والجاه يدل على رضا الله سبحانه وتعالى عمن آتاه ذلك ، وشرف قدره ، وعلو منزلته عنده لما أهلك من آتاه من ذلك أكثر مما آتى قارون ، فلما أهلكهم مع سعة هذا العطاء وبسطته علم أن عطاءه إنما كان ابتلاء وفتنة ، لا محبة ورضاً ، واصطفاء لهم على غيرهم) [٥٦] .

أما الرد بالفعل : فذلك ما ورد في قوله تعالى : (فَخَرَجَ عَلَى قَومِهِ فِي زِينَتِهِ) خرج على قومه خرجة الأشر والبطر والفخر والخيلاء ، مظهراً ما قدر عليه من الزينة من ملبس ومركب وحاشية [٥٧] ؛ وهذه الأفعال هي عين ما نهى عنه في النصائح ، فخروجه على هذه الصفة بعد النصح إنما هو استخفاف بالناصحين ، وازدراء للنصائح ، ولم يلبث قارون إلا يسيراً حتى ذاق وبال أمره ، فكانت نهايته المخزية عبرة لأمثاله المستكبرين الطغاة .

رابعاً :

موقف المجتمع من قارون :

لما خرج قارون في زينته الباهرة انقسم الناس فيه إلى فريقين :

الفريق الأول :

خدعوا وفتنوا بما رأوه من مظاهر الزينة والبهرجة ، فتمنوا أن يكون لهم مثل ما أوتي قارون ، قال تعالى : (قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الحَيَاةَ الدُّنيَا يَا لَيتَ لَنَا مِثلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ) وقد وصفت الآية أولئك الذين خدعوا بمظهر قارون بأنهم يريدون الحياة الدنيا ، فهذه الصفة هي سبب خطئهم وانحرافهم ، وهي التي جعلتهم يعتبرون قارون ذا حظ عظيم ، لأن مقياس الحظ عندهم هو كثرة الأموال بغض الطرف عن مسلك صاحبها ، فهم غافلون عن الآخرة لا يرون أمامهم إلا الدنيا بزخرفها وزينتها .

الفريق الثاني :

لم تخدعهم الزينة الزائلة الفانية ، فأنكروا على مريدي الدنيا الذين خدعوا بأموال قارون ، وبينوا لهم خطأ مقالتهم ، قال تعالى : (وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا العِلمَ وَيلَكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيرٌ لِمَن آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلا يُلَقَّاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ) ، والذي عصم هؤلاء من الافتتان بقارون هو العلم النافع الذي يمنح صاحبه المقياس السليم لإنزال كل شيء منزله ، فعلموا بفضل ما آتاهم الله من العلم أن الدنيا بما فيها زائلة فانية ، وأن الباقي هو ما عند الله ، فأنكروا على المخدوعين تفضيلهم الزائلة الفانية على الباقية الدائمة ، ولم يغفلوا في إنكارهم الإرشاد إلى ما ينال به ما عند الله ، وهو الإيمان والعمل الصالح ، وجماع ذلك كله هو الصبر .

خامساً : هلاك قارون :

بغي قارون على قومه بسبب أمواله ، فنصح ولم ينتصح ، بل ازداد علواً وطغياناً ، وصار مصدر فتنة للناس ، اغتر به أناس لم يرسخ الإيمان في قلوبهم ؛ فبقاؤه مع كفره بالنعم وبغيه يزيد من فتنة الناس بسببه ، فكان يسعى إلى حتفه بأفعاله ، وكان خروجه بزينته سبباً لتعجيل هلاكه وخلاص العباد والبلاد من شره ، قال تعالى في ذكره عاقبة أمره : (فَخَسَفنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ المُنتَصِرِينَ) ، واقتران الخسف بالفاء الدالة على العلية ، يدل على أن هلاك قارون كان سبب ما تقدم ذكره من بقيه وكفره بنسم الله جل وعلا [٥٨] .

ولما جاء أمر الله بإهلاك قارون لم يغن عنه شيء مما اغتر به ، لا المال ولا الجاه والحاشية ، فلم يجد ناصراً ، ولم ينتصر ؛ وحتى أولئك الذين فتنوا به وتمنوا أن يكون لديهم مثل ما عنده ثابوا إلى رشدهم لما رأوا نهايته المخزية ، فندموا على ما تمنوا ، وحمدوا الله على سلامتهم من مصير قارون ، وتحقق لديهم صدق إنكار أهل العلم عليهم ، وتبين لهم خطأهم عندما اعتبروا زينة قارون حظاً عظيماً ، قال تعالى : : (وَأَصبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوا مَكَانَهُ بِالأَمسِ يَقُولُونَ وَيكَأَنَّ اللَّهَ

يَبسُطُ الرِّزقَ لِمَن يَشاءُ من عبَاده وَيَقدِرُ لَولا أن مَنَّ اللَّهُ عَلَينا لَخَسَفَ بِنَا وَيكَأنَّهُ لا يُفلِحُ الكَافِرُونَ) (القصص:٨٢) ، وهكذا كانت نهاية قارون نهاية أليمة مخزية ، فيها عبرة لمن يعتبر ، وما هي ببعيد ممن يسلك مسلكه في الكفران والبغي ، وما أكثرهم في هذا الزمان والعاقل من اتعظ بغيره ؛ اللهم ألهمنا شكر نعمك وآلائك .

المبحث الرابع

هلاك أهل القرية الآمنة

أنعم الله على أهل هذه القرية بنعمتين عظيمتين ، هما نعمة الأمن ، ونعمة الرخاء ، وقلما تنعم أمة بهاتين النعمتين في آن واحد ، إلا في فترة يسيرة ، سرعان ما تفقد إحداهما أو كلتيهما ؛ ولو نظر المرء في تاريخ الأمم الماضية أو في أحوال الأمم الحاضرة لوجد أن السعي إلى تحصيل هاتين النعمتين أو إحداهما هو السبب الأغلب في نشوب الحروب ، وقيام المنازعات ؛ فكل أمة تنشد الأمن والرخاء ، وتبتغيهما ولو بذلت في سبيل ذلك كل غالٍ ونفيس ، وما ذلك إلا لكونهما من أعظم النعم الدينوية ؛ فإذا أنعم الله على أمة بالأمن والرخاء كان لزاماً عليها أن تنتدب بالشكر لربها ، وأن تنتهج المنهج الإلهي في الحياة ، لتكفل بذلك دوام النعمة والاستزادة منها ، وتجتنب العذاب الذي حل بأمم كفرت بنعم الله كهذه الأمة التي نحن بصدد الحديث عنها .

ولعظم هاتين النعمتين امتن الله بهما على قريش ، ودعاهم إلى القيام بحقهما من الشكر بعبادة الله الواحد الأحد ، قال تعالى : (لإيلاف قُرَيش × إيلافهم رحلَةَ الشِّتَاء وَالصَّيف × فَليَعبُدُوا رَبَّ هَذَا البَيت × الَّذي أطعَمَهُم من جُوع وَآمَنَهُم من خَوف) (قريش:١-٤) .

وعودة إلى قصة أهل القرية مع الآيات التي تحدثت عن نعم الله عليهم وكفرانهم بها ، ومصيرهم السيئ ، قال تعالى : (وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَريَةً كَانَت آمنَةً مُطمَئنَّةً يَأتيهَا رزقُهَا رَغَداً من كُلِّ مَكَان) (النحل:١١٢) ، وقوله : (آمنَةً) أي ذات أمن ، يأمن فيها أهلها ، أن يغار عليهم[٥٩] .

وقوله : (مُطمَئنَّةً) أي ساكنة بأهلها ، لا يزعجهم خوف ولا قلق ، ولا يحتاجون إلى الانتقال عنها لضيق أو نحوه[٦٠] .

وقوله : (يَأتيهَا رزقُهَا رَغَداً من كُلِّ مَكَان) أي يأتي أهلها معايشهم واسعة طيبة من كل فج من فجاج القرية ، ومن كل بلد من بلاد الله[٦١] ، فلا يعانون نقصاً في الغذاء ولا قلة ، ولا يخشون انقطاعاً لسبل الرزق ؛ وهذا ما يسمى بالأمن الغذائي ، وهو لا يقل أهمية عن الأمن النفسي ، بل قد يكون أهم منه عند من يقول بالمثل القائل : (قطع الأعناق ولا قطع الأرزاق) .

وفي هذه الآيات السابقة يقول الله تعالى ذكره: ومثل الله مثلا لمكة التي سكنها أهل الشرك بالله هي القرية التي كانت آمنة مطمئنة ، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى ، ويقتل بعضها بعضا ، ويَسبي بعضها بعضا، وأهل مكة لا يغار عليهم ، ولا يحارَبون في بلدهم، فذلك كان أمنها. وقوله(مُطمَئنَّةً) يعني: قارّة

بأهلها، لا يحتاج أهلها إلى النَّجع ، كما كان سكان البوادي يحتاجون إليها(يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا) يقول: يأتي أهلها معايشهم واسعة كثيرة. وقوله(مِن كُلِّ مَكَانٍ) يعني: من كلّ فجّ من فِجاج هذه القرية ، ومن كلّ ناحية فيها[٦٢] .

فأهل هذه القرية كانوا في نعمة عظيمة ، لكنهم لم يقدروها حق قدرها ، ولم يشكروا المنعم جل وعلا ، بل كان موقفهم حيالها كما قال تعالى سبحانه وتعالى : (فَكَفَرَت بِأَنْعُمِ اللَّهِ) قال ابن جرير : (فكفر أهل هذه القرية بأنعم الله التي أنعم عليها)[٦٣] ، والأنعم : جمع نعمة على جهة عدم الاعتداد بالتاء ، كشدة وأشد[٦٤] ، أو هي جمع نعم بمعنى التنعيم[٦٥] ، وقيل : هي جمع نعماء كبأساء وأبؤس[٦٦] .

واستعمل صيغة الجمع في النعم عند ذكر كفرانهم لأن حالة الأمن والرخاء التي كانوا فيها تتضمن نعماً كثيرة لا يحصيها العد .

وقد أخبر الله جل وعلا بما آل إليه أمرهم بعد الكفران بنعمه ، إذ بدلهم بالأمن خوفا ، وبالرخاء جوعاً ، قال تعالى : (فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ) (النحل: من الآية١١٢) ، وهذا التعبير فيه بيان بشدة ما ألم بهم من الجوع والخوف ، وذلك بأسلوب الاستعارة المجردة[٦٧] ، فقد شبه أثر الجوع والخوف وضررهما المحيط باللباس الكاسي للإنسان ، بجامع الإحاطة والاشتمال ، فاستعير له أسمه ، ثم أوقع عليه الإذاقة المستعارة لمطلق الإصابة[٦٨] ، وهي .أي الإذاقة .ملائمة للإصابة المستعار لها ؛ ولو رشحها[٦٩] لقال : فكساها لباس الجوع والخوف ، لكن التجريد أبلغ في هذا المقام ؛ لأن الإدراك بالذوق يستلزم الإدراك باللمس لا العكس ، لأن الذوق أعمق أثراً في الحس من مساس اللباس للجلد ، فكان في التعبير بالإذاقة إشعار بشدة الإصابة بخلاف التعبير بالكسوة[٧٠] ، ولو أضرب صفحا عن هذه الاستعارة وقال : فأذاقهما الله طعم الجوع والخوف لفات ما يفيده لفظ اللباس من عموم أثر الجوع والخوف عليهم ، وإحاطته بهم إحاطة اللباس للابس[٧١] وهذا التلبس بالجوع والخوف هو الإرهاب المقيم . فتنبين بهذا أن التعبير الذي عبر به القرآن هو أمثل ما يوصف به حال أهل القرية بعد حلول العقاب بهم .

وقد أخبر الله في خاتمة الآية أن حلول هذا العقاب بهم كان بسبب صنائعهم من الكفر بالنعم ، وجحود الآيات ، وتكذيب الرسول[٧٢] .

وختمت القصة بذكر بعض أعظم سيئاتهم التي أودت بهم ، وذلك في قوله سبحانه و تعالى : (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ) (النحل:١١٣) ، وإرسال الرسول إليهم ، وجعله من جنسهم يعرفون نسبه ولغته ومن أعظم المنح الإلهية ، الجالبة للنعم الدنيوية والأخروية ، وذلك للذين اتبعوا الرسول واهتدوا بهداه ، أما الذين كذبوا وعاندوا فإن إرسال الرسل يصير نقمة عليهم ، إذ تقوم عليهم الحجة بذلك ، ويحق عليهم القول بعاجل العذاب ، كما كان حال أهل القرية ، أو بآجله وذلك أدهى وأمر .

والذي نلاحظه ونراه الآن ما أصاب إقليم

دارفور [٧٣] بالسودان الذي كان ينعم بالأمن ورغد العيش ، فهب بعض أبناءه وبغرض التمكن من السلطة والقيادة بقيادة عصيان وتمرد ، دون أخذ الوسائل التي تجنب المنطقة والمواطنين أسباب الدمار والموت . ومهما كانت المبررات فإن ما أصاب هذا الإقليم لا يمكن تصوره . فأصاب أهله فاقة بعد غني وخوف بعد أمن وجوع بعد رغد عيش . وهكذا نرى سنن الله تعالى أمامنا فلا نتعظ أو نتجنبها .

المبحث الخامس :

رفع الهلاك المستأصل عن هذه الأمة

عندما ذكر الله سبحانه وتعالى قصص هلاك الأمم السابقة في القرآن الكريم وهو شريعة الرسالة الخاتمة ؛ جعل من ضمن الحكم الوافرة لهذا الذكر ؛ هو أن تتعظ بذلك هذه الأمة ليتحقق لها البقاء ووراثة الأرض ، التي أناطها الله تعالى بهذه الأمة .

فقد وردت جملة من الأحاديث الصحيحة يذكر فيها النبي صلى الله عليه وسلم ، رفع أنواع من العذاب عن هذه الأمة ،منها قوله صلى الله عليه وسلم :(سالت ربي ثلاثاً فأعطاني ثنتين ومنعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتي بالسنة [٧٤] فأعطانيها ، وسألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) رواه مسلم [٧٥] .

وقد حمل العلماء هذا الحديث ونظائره على الاستئصال العام كالذي حل بقوم نوح وعاد وثمود ومن بعدهم ، فالذي أعطيه النبي (صلى الله عليه وسلم) هو ألا يهلك أمته عامة بالغرق والسنة ؛ أما هلاك طوائف من أمته بهذين العذابين أو غيرهما فأمر واقع مشاهد ، ولو كان ذلك داخلاً في دعوة النبي (صلى الله عليه وسلم) لما وقع أبداً [٧٦] . وهناك حديث يدل على وقوع الهلاك في هذه الأمة دون تحديد نوعه ، وذلك حديث زينب بنت جحش أم المؤمنين رضي الله عنها ، وفيه : قلت : يا رسول الله أتهلك وفينا الصالحون ؟ قال : (نعم ، إذ كثر الخبث) متفق عليه [٧٧] .

وهناك أحاديث أخرى تدل على وقوع أنواع معينة من الهلاك في طوائف من هذه الأمة ، ومنها حديث أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : (يعوذ عائذ بالبيت فيبعث إليه بعث ، فإذا كانوا ببيداء [٧٨] من الأرض خسف بهم) رواه مسلم [٧٩] .

ومنها قوله (صلى الله عليه وسلم) : (.... ويمسخ آخرين قردة وخنازير إلى يوم القيامة) رواه البخاري [٨٠] . .

ومنها حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم): (يكون في آخر هذه الأمة خسف و مسخ وقذف) [٨١] .

وإذا كان الأمر كذلك فالواجب على المسلم أن يتجنب أسباب الهلاك وسائر المنكرات ، فإن العذاب لا ينزل إلا بذنب ، والمرء لا يدري أيعجل له أم يؤجل ، كما يجب على المجتمع أن يأخذ على أيدي العصاة الفسقة أخذاً شديداً

، فالعقوبات قد تحل على المجتمع بسبب طوائف من العصاة ، فإذا حلت عمت ولن تختص بهم وحدهم.

وليحذر الناس كل الحذر من الأمن من مكر الله ، فذلك من أعظم البلايا ، ونحن أولى بالخوف من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وقد كان من أحواله ما ذكرته عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، قالت : (...وكان .أي النبي صلى الله عليه وسلم. إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف ذلك في وجهه ، قالت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، وأراك إذا رأيته عرف في جهك الكراهية ، فقال : (يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، وقد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا) متفق عليه [٨٢] .

وكان خوفه (صلى الله عليه وسلم) شفقة على أمته أن يعاقبوا بعصيان العصاة ، ولذلك سر بزوال سبب الخوف [٨٣] ، وإذا كان هذا حال خير البرية (صلى الله عليه وسلم) وهو بين ظهراني خير القرون ، فنحن أحق أن نخاف من العذاب العاجل والآجل بسبب المعاصي والعصاة ، كيف لا ونحن في زمان قد عم فيه الفساد وطم ، وكثرت المصائب والمحن .

الخاتمة :

جحود نعم الله تعالى و عدم شكرانها من أهم أسباب هلاك الأمم والأفراد ، و هي من المصائب المستشرية في الأمة التي يجب الوقوف عندها و التحذير منها ، و قد ساق الله سبحانه وتعالى منها قصصا عن الأمم السابقة مبينا ما حل بهم من أنواع العذاب بسبب معاصيهم . لتعتبر الأمة بتلك القصص ، كما أن في ذكرها تسلية للنبي صلي الله عليه و سلم قال تعالى : (أَفَلَم يَسيرُوا في الأَرض فَيَنظُرُوا كَيفَ كَانَ عَاقبَةُ الَّذينَ من قَبلِهم دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيهم وَللكَافرينَ أَمثَالُهَا) (محمد : ١٠) . و برغم أن الأمم السابقة قد أصابها الهلاك المبير و الإستصال الماحق ، إلا أنه قد وردت أحاديث صحيحة ذكر فيها رفع بعضاً من أنواع العذاب عن هذه الأمة ، ومنها قوله صلي الله عليه و سلم (سألت الله ثلاثة فأعطاني ثنتين و منعني واحدة ، سألت ربي أن لا يهلك أمتى بالسنة [٨٤] . فأعطانيها ، و سألته أن لا يهلك أمتي بالغرق فأعطانيها ، و سألته أن لا يجعل بأسهم بينهم فمنعنيها) رواه مسلم [٨٥] .

ومن الأمور الخطرة والمستشرية في عامة بقاع ديار الإسلام ويتعاطاه نفر من بني جلدتنا من المسلمين ، هو البطر والتعالي والتفاخر بالمال ، والتوسع الفاحش في أمارات الترف ودلائل النعمة والترفه ، دون مراعاة لأصحاب الحاجات من جيرانهم وأهل قرابتهم . بما يربي في المجتمعات شريحة حاقدة تنظر بعين الريبة والحسد لهؤلاء النفر الذين يستفزونهم بهذا .

و مما لم تعلمه أمتنا في السابق أو لم يكن عليه صالحوها هو التوسع الفاحش والتفاخر بالمال ، بل كان هذا من شيم أهل الفجور من غير أهل الإسلام ، ومن لوازم مثل هذه التصرفات وهذا السلوك أن يتبعه التبذل

والفحش . وعبر هذا تمر كل سبل المنكرات والموبقات التي تسوق لهلاك فاعله ، وليس كل من يفعل مثل قارون أن يخسف به ، ولكن قد يدمر تدميرا أشد من الخسف ، فنحن نرى آيات الله تعالى وسننه في من يسير على دربه في هذه الأمة فكم من دمر الله أمواله وخسف بها خسوف محق وخسارة لحقها بوار في الصحة ودمار في المال والأولاد ، والقصص في هذا المجال أكثر من أن نحصرها أو نحصيها .

و ليحذر الناس كل الحذر من الأمن من مكر الله ، فذلك من أعظم البلايا ، ونحن أولى بالخوف من رسول الله صلي الله عليه وسلم ، و قد كان من أحواله ما ذكرته عائشة أم المؤمنين رضي الله عليها : (. . . و كان . أي النبي صلي الله عليه و سلم . إذا رأى غيما أو ريحا عرف ذلك في وجهة ، قالت يا رسول الله : الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر ، و أراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية ، فقال : (يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ، عذب قوم بالريح ، و قد رأى قوم العذاب فقالوا : هذا عارض ممطرنا) متفق عليه[٨٦] .

و كان خوفه صلي الله عليه و سلم شفقة على أمته أن يعاقبوا بعصيان العصاة ، و لذلك سر بزوال سبب الخوف [٨٧] ، و إذا كان هذا حال خير البرية صلي الله عليه وسلم و هو بين ظهراني خير القرون ، فنحن أحق أن نخاف من العذاب العاجل و الآجل بسبب المعاصي و العصاة .

أولا : النتائج :

١/ إن الله سبحانه و تعالى وضع سنن و قوانين تحكم بناء وتطور الحضارات البشرية من حيث النشوء و التكوين إلى مرحلة الزوال و التلاشي ، وما ينطبق على الأمم ينطبق على الأفراد .

٢/ العقاب اللالهي يتنوع حسب المعاصي التي تقترفها الأمم و الأفراد ، فتتراوح هذه العقوبات من الهلاك التام إلى أنواع أخرى من الإبتلات التي دون الهلاك .

٣/ قد من الله سبحانه وتعالى على الأمة الإسلامية بأن وعدها بعدم الاستئصال و لكنها ليست بمنجاة من الهلاك الذي هو دون الهلاك التام .

٤/ لا يعاقب الله سبحانه وتعالى حتى يقيم الحجة على من استحق العقوبة وتم إنذاره .

٥/ تتماثل العقوبات وأساليب الهلاك مع نوع المعصية التي يتم اقترافها فعلى قدر المعصية يكون نوع العقوبة ومقدارها .

٦/ شكر النعم يوجب عدم زوالها .

ثانيا : التوصيات :

١. إشاعة قيم العدل و التحلي بلباس التقوى ، من أهم أسباب رفع البلاء وزيادة الأرزاق.

٢. علينا التعرف على السنن الإلهية التي تتحكم في مسارات الكون والأمم ، والوقوف عند سنن الهلاك لتوخي السقوط فيها .

٣. على المسلمين التواصي بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبعد عن المعاصي حتى

لا يتعرضوا لعقاب الله تعالى .

٤. تحكيم الشريعة ، وإقامة أحكامها في القضاء وتطبيق الحدود من أهم أسباب جلب الخير ووقاية الأمة من الهلاك .

٥. على الدعاة الاهتمام بقصص الأمم السابقة ، وأخذ العبرة من ورودها في ثنايا القرآن الكريم وآياته ، والتوجيه لدراستها .

٦ ـ الترف البذخ والمباهاة بالمال والأولاد من دواعي الهلاك والدمار ، وليس الخسف هو التغييب داخل الأرض ولكن منه التغييب في الفراش بأنواع من الابتلاءات المتعددة كالشلل وأنواع الجلطات وفقدان الذاكرة وغيرها والخسارة في المال بتلفه ومحق بركته وعدم الربح .... .

(هوامش)

١ / أنظر : تفسير ابن كثير ١/ ٢٤ ، ومجموع الفتاوى ١١/١٣٤، ١٣٦ .

٢ / أنظر : المفردات ص٣٦٥ ، وإحياء علوم الدين ٤/٨٧، ٨٩ ، وقد وردت آثار عن بعض السلف تدل على هذا المعني الشمولي للشكر ، ومنها قول محمد بن كعب القرظي : (الشكر : تقوى الله والعمل بطاعته) (تفسير الطبري ٢١/٢٢/٧٢ ، وقول أبي عبد الرحمن السلمي : (الصلاة شكر ، والصيام شكر ، وكل خير تعمله لله عز وجل شكر ، وأفضل الشكر الحمد) (تفسير ابن كثير ٣/٥٣٦) .

٣ / المفردات ص٤٣٣ ، عمدة الحفاظ ص٤٩٤ .

٤ / المصدران السابقان .

٥ / أنظر : التحديد للكفر المطلق في : المفردات ص٤٣٤ ، وعمدة الحفاظ ص٤٩٥ ، وزاد هذا الأخير قوله : (وترك ما لزمه من شكر النعمة) .

٦٧ / أنظر : الكشاف ٢/ ١٤ ، والمحرر الوجيز ٣/٢٩٢ ، وتفسير البيضاوي ١/ ٣٠١ ، وروح المعاني ١٥٢ .

٨ / هو نصر بن محمد بن أحمد بن إبراهيم السمر قندي ، الفقيه المحدث الزاهد المعروف بإمام المهدي ت ٣٩٣ ه ، وقيل : ٣٧٥ ه من كتبه : بحر العلوم في التفسير ، والنوازل في الفقه ، وتنبيه الغافلين .
له ترجمة في : سير أعلام النبلاء ١٦/٣٢٢،٣٢٣ رقم ٢٣٠ ، وطبقات الداوودي ٢/٣٤٦ رقم ٦٥٨ ، ومفتاح السعادة ٢/٢٧٧ .

٩ / تفسيره ٢/٥٢٢ .

١٠ / أنظر : تفسير الطبري ٥/٧/١٩٢ ، والمحرر الوجيز ٢/٢٩١ .

١١ / أنظر : المحرر ٢/٢٩١ ، وتفسير ابن كثير ٢/١٣٧ .

١٢ / أنظر : المصدرين السابقين ، ولعل الإمام ابن كثير ممن يرى جواز إيراد كل واحد منهما بدل الآخر ، ولذا ذكر في موضع الأعراف عكس ما ذكره في موضع الأنعام . أنظر : تفسيره ٢/١٣٧ ، ٢/٢٤٣ .

١٣ / انظر : تفسير الطبري ٥/ ٧/ ١٩٢ ، والكشاف ٢/ ١٤ .

١٤ / انظر : المحرر الوجيز ٢/ ٢٩٢ .

١٥ / انظر: المحرر ٢/ ٢٩٢ .

١٦ / تفسير الطبري ٦/ ٩/ ٨/ ، وتفسير ابن كثير ٢/ ٢٤٣ .

١٧ / سورة الأنعام الآية : ٦ .

١٨ / أي النعم ، وهو جمع يد بمعنى النعمة . أنظر : اللسان ٨/٢٥٩٤ .

١٩ / تفسيره ٢١/٢٢/١٠٣ .

٢٠ / سورة نوح ، الآيات ١٣ـ٢٠ .

٢١ / سورة نوح ، الآيات ١٠ ـ ١٢ .

٢٢ / سورة الأعراف : الآية. ٦٩ .

٢٣ / المحرر الوجيز ٤١٧/٢ .

٢٤ / تفسير ٥٤٢/٤ ، وقد بنى ابن كثير قوله هذا على أن (إرم) اسم القبيلة ، والهاء في (مثلها) راجع إليها أو إلى عاد ؛ وهذا هو القول المعتمد ، وهو الذي رجحه جمع من المفسرين ومنهم الطبري ○ تفسيره ١٥/٣٠/ ١٧٦. ١٧٧ ، وابن عطية ○ المحرر ٤٧٧/٥ . ٤٧٨ □ وغيرهما ؛ أما ما يذكر أن (إرم) مدينة في صحراء اليمن ، مبنية من لبن الذهب والفضة ، موصوفة بأوصاف خيالية فلا أصل له ، وأشار كثير من العلماء إلى إختلافه ؛ وقد تتبع ابن خلدون هذه القصة وفندها في مقدمة تاريخه ص١٤. ١٥ .

٢٥ / ينظر : تفسير الطبري ٦٢/١٢/٧ ، والمحرر ١٨٣/٣ ، وتفسير ابن كثير ٤٦٧/٢ .

٢٦ / المصادر السابقة .

٢٧ / المحرر الوجيز ٤٢٢/٢ .

٢٨ / الآية ٨٢ .

٢٩ / الآية ١٤٩ .

٣٠ / الآية ٩ .

٣١ / أي اقتطعوا واستؤصلوا . مختار الصحاح ص ١٧٤ ، لسان العرب ١١٤٥/٢ .

٣٢ / ذكر المفسرون أقوالاً في المراد بالخير في الآية التي سيأتي ذكرها قريباً ، وهي أقرب ما تكون إلى التمثيل منه إلى التعيين ، وقد رجح الإمام الطبري حملة على العموم ؛ والأمور التي ذكرتها في الأعلى هي بعض أوجه الخير وليس كلها . أنظر : تفسير الطبري ٩٨/١٢/٧. ٩٩ ، والنكت ٤٩٥/٢ ، وزاد المسير ١١٤/٤ .

٣٣ / زاد المسير ١٦٨/٣ .

٣٤ / تفسر ٨٥/٤ .

٣٥ / من الآية ٧٦ إلى الآية ٨٢ .

٣٦ / المفردان ص٤٤٢ .

٣٧ / أنظر : مختار الصحاح ص٥٨٠ ، وتفسير البيضاوي ١٩٩/٢ .

٣٨ / أنظر تفسير الطبري ١٠٧/٢٠/١١ ، والكشاف ١٧٨/٣ .

٣٩ / وهذا القول مروي عن مجاهد وخيثمة وغيرهما ، وإليه ذهب الطبري : أنظر : تفسيره ١٠٦/٢٠/١١ ، النكت ٢٦٦/٤ ، والمحرر ٢٩٨/٤ ، والكشاف ١٧٨/٣ .

٤٠ / من تلك الروايات ما روى عن خيثمة أنه قال : (نجد مكتوباً في الإنجيل مفاتح قارون وقر ستين بغلاً غراً محجلة ، ما يزيد كل مفتاح منها على إصبع ، لكل مفتاح منها كنز) ○ تفسير الطبري ١٠٧/٢٠/١١ □ وقد استبعد ابن عطية هذا الوصف لأموال قارون من جهة النظر ○ المحرر ٢٩٨/٤ □ ، وهو بعيد فعلاً .

٤١ / ينظر : التحرير والتنوير ١٧٧/٢٠ .

٤٢ / أختلف المفسرون في عدد العصبة هنا على أقوال كثيرة ، ويتراوح عددهم في تلك الأقوال ما بين الثلاثة إلى السبعين ، وبعض تلك الأقوال مروية عن ابن عباس من طريق ضعيف ، وعن بعض التابعين . ينظر تفسير الطبري ١٠٧/٢٠/١١. ١٠٨ ، والنكت ٢٦٦/٤ ، وزاد المسير ١١٢/٦ .

٤٣ / وهذا القول مروي عن أبي صالح والسدي والضحاك وغيرهم . أنظر : تفسير الطبري ١٠٧/٢٠/١١ ، والنكت ٢٦٦/٤ ، والكشاف ١٧٨/٣ ، وزاد المسير ١١١/٦ .

٤٤ / القولان اللذان أوردتهما في المراد بالمفاتح هما المذكوران في أغلب كتب التفاسير ، القديمة منها والحديثة ، وهناك قول آخر نقله الماوردي عن ابن بحر . لم أعرفه . ، وكذا الرازي عن أبي مسلم . ولعله الأصفهاني . وهو أن المراد هنا هو إحاطة العلم بتلك

الكنوز ، أي أنها لكثرتها واختلاف أصنافها يثقل حفظها والاطلاع عليها كاهل العصبة ذوي القوة . وهذا القول فيه بعد ، أنظر : النكت ٢٦٦/٤ ، وتفسير الرازي ١٦/٢٥/١٣ . والذي أراه والله اعلم ؛ ان المفاتيح المذكورة تلك لا يمكن أن نتصورها بحجم وشكل المفاتيح التي نراها الآن ، ولكن من شهد مغاليق أبواب الحصون فانه يمكنه أن يتصور حجم وشكل تلك المفاتيح ، ولا يمكننا تصور شكل وحجم محافظ المال والخزن التي يتم فيها حفظ المال .

٤٥ / أنظر : تفسير الطبري ١١١/٢٠/١١ ، وتفسير السمرقندي ٥٢٦/٢/٢ ، وزاد المسير ١١٢/٦ .

٤٦ / أنظر : المحرر الوجيز ٢٩٩/٤ ، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٣ ، ينظر : تفسير الطبري ١١٢/٢٠/١١ ، والمحرر الوجيز ٢٩٩/٤ .

٤٧ / أخرجه الطبري عنه من طريق على بن أبي طلحة ١١٢/٢٠/١١ .

٤٨ / المحرر الوجيز ٣٠٠/٤ ، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٣ .

٤٩ / زاد المسير ١١٣/٦ ، وتفسير البيضاوي ٢٠٠/٢ .

٥٠ / أنظر : التحرير والتنوير ٢٠/ ١٧٧ .

٥١ / أنظر : المحرر الوجيز ٣٠٠/٤ .

٥٢ / المراد بالكيمياء هنا شيء أقرب إلى الدجل منه إلى العلم ، فقديماً كان الناس يعتقدون أن من عنده هذا العلم يمكن أن يقلب الحديد أو النحاس ذهباً خالصاً ؛ وذكر بعض المفسرين حكايات غريبة جداً في الطريقة التي حصل بها قارون على هذا العلم المزعوم [ينظر : النكت ٢٦٨/٤ ، والكشاف ١٧٨/٣ ، وتفسير الرازي ١٧/٢٥/١٣] وقد أجاد الإمام ابن كثير في إبطال هذا القول من أصله ، فليراجع كلامه في تفسيره ٤١٠/٣ .

٥٣ / أنظر هذه الأقوال في : النكت ٢٦٨/٤ ، والكشاف ١٧٨/٣ ، والمحرر ٣٠٠/٤ ، وزاد المسير ١١٣/٦ ، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٣ .

٥٤ / أنظر : النكت ٢٦٨/٤ ، وزاد المسير ١١٣/٦ ، وتفسير ابن كثير ٤١٠/٣ .

٥٥ / انظر : المحرر الوجيز ٣٠٠/٤ ، والكشاف ١٧٨/٣ .

٥٦ / وهذا مما استدل به ابن كثير على ترجيح هذا القول . تسير ٤١٠/٣ .

٥٧ / بدائع التفسير ٣٥٨/٣ .

٥٨ / أطال بعض المفسرين في وصف زينة قارون ، فحشدوا مالاً طائل تحته من عجائب الأوصاف وغرائب الأصناف مما لا يعضده نقل ثابت ، وقد أضربت عنها صفحاً ، أسوة ببعض من سلف كابن عطية رحمه الله ، حيث قال في تفسيره : (وأكثر المفسرون في تحديد زينة قارون وتعيينها بما لا صحة له فاختصرته) المحرر ٣٠١/١٤ .

٥٩ / أنظر : تفسير الرازي ٢٥/١٣ / ١٩ .

٦٠ / زاد المسير ٣٦٥/٤ .

٦١ / المصدر السابق ، والكشاف ٣٤٦/٢ ، وتفسير البيضاوي ٥٥٩/١ .

٦٢ / انظر : تفسير الطبري ١٨٥/١٤/٨ ، وزاد المسير ٣٦٥/٤ ، والمفردات ص١٩٨ .

٦٣ / تفسير الإمام الطبري : ١٧ / ٣٠٩ .

٦٤ / تفسيره ١٤/٨/ ١٨٦ .

٦٥ / أنظر : المصدر السابق ، والمحرر الوجيز ٤٢٦/٣ ، زاد المسير ٣٦٥/٤ ، وتفسير البيضاوي ٥٥٩/١ .

٦٦ / المصادر السابقة .

٦٧ / تفسير الطبري ١٤/٨ ، ١٨٧ .

٦٨ / الاستعارة المجردة : هي التي قرنت بما يلائم

المستعار له ، كقولك : رأيت أسداً يجندل الأبطال بنصله . انظر : الإيضاح للقزويني ص١٧١ ، وعلوم البلاغة للمراغي ص٢٧٧ .

٦٩ / انظر : الكشاف ٣٤٦/٢ ، وتفسير أبي السعود ٤٠٧/٣ ، وروح المعاني ٢٤٣/١٤ ، والإيضاح للقزويني ص١٧١ .

٧٠ / أي لو جعلها استعارة مرشحة ، وهي التي قرنت بما يلائم المستعار منه ، كقولك في وصف شجاع رأيت أسداً دامي الأنياب ، وهي أبلغ من الاستعارة المجردة على العموم ، أما في هذه الآية فلا ، كما بينت ذلك في الأعلى . وينظر التعريف في : الإيضاح ص١٧١ ، وعلوم البلاغة ص٢٧٧ .

٧١ / أنظر : الإيضاح ص١٧١ . ١٧٢ ، والظلال ٢٨٨/٥ .

٧٢ / أنظر : الإيضاح ص١٧٢.١٧١ .

٧٣ / تفسير الطبري ١٨٧/١٤/٨ .

٧٤ / إقليم في غربي السودان ، متوفر الموارد واسع المساحة كثير الأمطار ، مساحته تعادل مساحة دولة فرنسا .

٧٥ / السنة : الجدب . [النهاية ٤١٣/٢] .

٧٦ / أخرجه في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص (رضي الله عنه) كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضاً ٢٢١٦/٢ رقم ٢٨٩٠ .

٧٧ / أنظر : فتح الباري ٢٩٣.٢٩٢/٨ وفيه بحث نفيس عن هذه المسألة فليرجع إليه للمزيد ، وينظر أيضاً : تفسير القاسمي ٢٣٥٧/٦ ، وتفسير المنار ٤٩٥/٧ .

٧٨ / صحيح البخاري ، كتاب بدء الخلق ، باب قصة يأجوج ومأجوج ١٠٩/٤ ، وصحيح مسلم ، كتاب الفتن وأشرط الساعة ، باب إقتراب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج ٢٢٠٨/٤ رقم ٢/٢٨٨٠ .

٧٩ / البيداء : كل أرض ملساء لا شيء بها . [شرح النووي على صحيح مسلم ٥/١٨] .

٨٠ / صحيح مسلم كتاب الفتن ، باب الخسف بالجيش الذي يؤم البيت ٢٢٠٩/٤ رقم ٢٨٨٢ .

٨١ / تقدم تخريجه في ص٧٦ ، وقد سبق أن الحديث ورد في مستحلي الحرير والمعازف ، وما أكثرهم في هذا الزمان نسأل الله السلامة والعافية .

٨٢ / أخرجه الترمذي في سننه ، كتاب الفتن ، باب ما جاء في الخسف ٤٧٩/٤ رقم ٢١٨٥ ، وأحمد في المسند ١٦٣/٢ بنحوه من حديث ابن عمر رضي الله عنهما . وصحيح الألباني كلا الطريقين . [صحيح الجامع الصغير ١٣٥٥/٢ رقم ٨١٥٤ ، ٨١٥٥ ، وصحيح سنن الترمذي ٢٣٧/٢ رقم ١٧٧٦م .

٨٣ / صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الأحقاف ٤٢/٦ ، وصحيح مسلم ، كتاب صلاة الاستسقاء ، باب التعوذ عند رؤية الريح والغيم ، والفرح بالمطر ٦١٦/٢ رقم ١٦/٨٩٩ .

٨٤ / أنظر شرح النووي لصحيح مسلم ١٩٦/٦ .

٨٥ / السنة : الجدب ، [النهاية ٢ / ٤١٣] .

٨٦ / أخرجه في صحيحه من حديث سعد بن أبي وقاص ○ رضي الله عنه □ كتاب الفتن و أشراط الساعة ، باب هلاك هذه الأمة بعضهم بعضا ٤ / ٢٢١٦ رقم ٢٨٩٠ .

٨٧ / صحيح البخاري ، كتاب التفسير ، سورة الأحقاف ٦ / ٤٢ ، و صحيحمسلم ، كتابصلاة الاستسقاء ، باب التعوذ عند رؤية الريح و الغيم ، و الفرح بالمطر ٢ / ٦١٦ رقم ٨٩٩ / ١٦ .

٨٨ / انظر : شرح النووي لصحيح مسلم ٦ / ١٩٦.